الأليات الإجرائية للتحليل الأسلوبي في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني

د. نوارة بحري جامعة خنشلة

الملخص

تحليل الخطاب مجال رحب جامع لنظريات لغوية متعددة، فهو مركز استقطاب، ونقطة التقاء للعلوم المتباينة، كما أن الكشف عن آليات تحليل الخطاب عند واحد من جهابذة اللغة العربية ألا وهو الذي كشف عن حقيقة تفكيره اللساني، والأسس المعرفية المعتمدة في مؤلفه "دلائل الإعجاز"، فالجرجاني عني بالتقعيد والتنظير للمصطلحات والمفاهيم قبل الخوض في الإجراء والتطبيق، فقد ربط الأسلوب والنظم مفصلا تصوره بدراسة علمية تنم عن عقل حصيف.

الكلمات المفتاحية: آلية–تحليل–أسلوب–دلائل الإعجاز.

Résumé:

L'analyse du discours est un vaste domaine pour les multiples théories de la linguistique, c'est un centre d'attraction, et un point de jonction des sciences diverses. La révélation des mécanismes d'analyse du discours chez l'un des génies de la langue arabe Abdelkaher El Djardjani, a dévoilé sa véritable pensée linguistique, ainsi que les fondements de la connaissance dans son ouvrage intitulé "Les signes de miracle". El Djardjani qui s'est attelé à théoriser les termes et les concepts avant de prospecter dans la procédure et l'application, a permis la liaison entre les systèmes et méthodes en décrivant sa vision dans une étude scientifique concevable reflétant un esprit judicieux.

***Mots clés**: mécanisme- analyse-méthode-signes de miracle*

مقدمة:

تروم هذه الدراسة تقديم قراءة حول الآليات الإجرائية للتحليل الأسلوبي في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، هذا العالم الفذ الذي ترك لنا مؤلفات بمثابة كنوز معرفية، تنبئ بقدرته العالية على الكتابة والتأليف، وعلى سعة اطلاعه، فمؤلفه " دلائل الإعجاز" يعد عصارة فكره الثاقب، وعقله الحصيف، حوى بين دفتيه معارف شتّى في النحو والبلاغة والأسلوب والنقد والدلالة وغير ذلك، كما أن كتابه قابل للقراءة والتأويل، لاحتوائه على أفكار لا تحتملها سطوره، لذلك شحذت همم الباحثين المحدثين العرب لتدارسه وقراءته قراءات لسانية(بنيوية، توليدية تحويلية، وظيفية تداولية) .

النظم عند عبد القاهر الجرجاني: يعد النظم أساس تفكيره، وقد بلغ عنده مرحلة النضج، فقد كان مفهومه عنده واضح المعنى، مؤصل القواعد، ومطبّقا على نصوص قرآنية وشعرية كثيرة، يقول عبد القاهر في مدخل مؤلفه دلائل الإعجاز: « معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب بعض » [(1)] فالنظم عنده تعلق الكلم بعضها ببعض، لكن هذا التعليق في اللغة العربية لا يكون كيفما اتفق، بل إن له طرائق مخصوصة، وأوضاعا معروفة، وحالات معدودة، يشرحها عبد القاهر ويوضحها بقوله: « والكلم ثلاث : اسم، وفعل، وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام: تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل ، وتعلق حرف بهما » [(2)] فمفهوم التعليق وأحواله في اللغة العربية هي أولى مفاهيم النظم عند الجرجاني، والنظم في تفكيره شديد الارتباط بالأسلوب، فبعد قراءتنا لدلائل الإعجاز تبين أن الجرجاني انطلق في تحديده الأسلوبي من ثلاثة مبادئ نظرية وأسس بها لنظريته الأسلوبية هي: النظم بنية ونسيج، النظم دلالات ومعان، والنظم جمال ومزايا، نحاول في هذا المقال توضيح هذه المبادئ الثلاثة وشرحها، وتبيان كيف استثمرها الجرجاني في تحليل البنى اللغوية.

الأساس الأول: النظم بنية ونسيج:

حوى هذا الأساس مصطلحين أولهما حديث وثانيهما قديم، فمصطلح "البنية" من المصطلحات التي أفرزتها لمدرسة البنيوية، وتعتبر أن النصوص « بناء لمعنى مأخوذ من معجم ليس لمفرداته معان خارج البناء الذي يضمها » [3] .وهذا المعنى يتوافق تماما مع مفهوم النظم، عند عبد القاهر، وقد تنبه لهذا الأمر جملة من الباحثين العرب أمثال محمد مندور[4] ، وتمام حسان [5] وغيرهما.

أما مصطلح "النسيج"، فقد ورد في النصوص التراثية قبل عبد القاهر الجرجاني، ولعل أبرزها قول الجاحظ: «... وإنما الشعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير» [6]، وهذا التعبير من الجاحظ يقترب من مفهوم النظم. أما مفهوم البنية والنسيج عند الجرجاني فيعني أن اللغة ليست رصف وتأليف للألفاظ، بقدر ماهي مجموع الروابط التي بين الكلمات بفضل الأدوات اللغوية، وبنية النظم عنده ترتكز على مفهومين رئيسيين هما: التعليق والترتيب:

1-التعليق: معناه يتجلى في قول الجرجاني: « معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض...» [7] ، ويعتبر تمام حسان أن « أخطر شيء تكلم فيه عبد القاهر على الإطلاق فلم يكن النظم، ولا البناء، ولا الترتيب، وإنما كان التعليق » [8]؛ لأن التعليق يحدد بواسطة القرائن معاني الأبواب في السياق، ويفسر العلاقات بينها على صورة أوفى و أفضل وأكثر نفعا في التحليل اللغوي لهذه المعاني الوظيفية النحوية » [9].فالتعليق حسبه ضرورة وليست اختيارا.

2- الترتيب: تردد ذكر هذا المصطلح كثيرا في الدلائل، حيث جعل الجرجاني الترتيب منوطا بأحكام النحو وقوانينه حيث قال: « واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك، أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلق بعضها ببعض، ويبني بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك» [10] فمن خلال هذا القول يتضح أن الترتيب عنده « قصد به شيئين: أولهما ما يدرسه النحاة تحت عنوان الرتبة، وثانيهما ما يدرسه البلاغيون تحت عنوان التقديم والتأخير» [11].

الأساس الثاني: النظم معان و دلالات:

قبل أن نبين تناول عبد القاهر لمسالة الدلالة يجب توضيح مصطلحي المعنى والدلالة لإزالة اللبس, ولعل أشهر تفريق بينهما هوما ذهب إليه « بعض الباحثين أن دلالة الوحدة اللغوية هو مدلولها، وأما المعنى فهو القيمة الدقيقة التي يتخذها هذا المدلول المجرد في سياق أوحد»[12]. وبهذا تكون "الدلالة" منتمية إلى حقل اللغة، في حين يكون "المعنى" منتميا إلى حقل الكلام، فالمعنى « لا يحيل على بسائط متفردة، وإنما على بنية علائقية متعددة الأبعاد تأتلف في صلبها الذات والوجود واللغة »[13]، ورغم وجود الفارق بينهما إلا أنه « كثيرا ما تستخدم كلمتا معنى و دلالة على أنهما مترادفتان، وخاصة حينما يكون المعنى مقصورا على الألفاظ المفردة»[14].

الأساس الثالث: النظم جمال و مزايا:

النظم عند عبد القاهر لا يتحدد ولا يستقيم بالأساسين السابقين فقط أي النظم بنية لغوية تؤدي دلالات متنوعة، وأن النظم بنية ودلالة، فالنظم ليس تأليف وتضام للكلمات التي تكوّن كيان الجمل التي نستشف منها دلالة التركيب فحسب، بل إن الجانب الفني الجمالي أيضا يجب أن يراعى حتى تحصل المتعة والإمتاع للأسماع، وأسر للقلوب، وهذا ما يسميه عبد القاهر بالمزية. فالمزية عنده « مصطلح ذو معدل عال من التكرار والشيوع – على وجه التحديد– في نص الدلائل؛ إذ في المقابل وروده مرتين فحسب في (الأسرار) يرد في (الدلائل) في صيغه المختلفة –معرفا ومنكرا ومفردا وجمعا– ما لا يقل عن مائة وخمس وسبعين مرة »[15].

المزية يعرفّها الجرجاني بقوله: « إنها خصوصية في كيفية النظم، وطريقة مخصوصة في نسق الكلام بعضها على بعض »[16]. وهذا معنى عام للمزية، والتي تظهر في نظم الكلمات ، وضم الوحدات اللغوية ضما معلوما، وبها يفرق بين نظم ونظم، وكلام وكلام، فالجاحظ « لا يريد أن يجعل الشكل المحض، الشكل الجامد هو موطن الجمال في العمل الفني، بل هو يضم إلى هذا الشكل

الرّوح، وينفخ فيه الحياة، فهو إذا أخذ بمبدأ الصنعة في الأدب لا يريد تلك الصنعة الآلية بل يريد الصنعة التي تمتزج بالروح، فهي صنعة ولكنها حية »[17]. ولذلك يقول:« واعلم أن من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته أن لم يحتج واضعه إلى فكر وروية حتى انتظم، بل ترى سبيله في ضم بعضه إلى بعض سبيل من عمد إلى لآل فخرطها في سلك لا يبغي أكثر من أن يمنعها التفرق...فما كان من هذا وشبهه لم يحب به فضل إذا وجب إلا بمعناه أو بمتون ألفاظه، دون نظمه و تأليفه، وذلك لأنه لا فضيلة حتى ترى في الأمر مصنعا، وحتى تجد إلى التخيير سبيلا، وحتى تكون قد استدركت صوابا»[18].

فإذا كانت المبادئ النظرية الثلاثة التي انطلق منها الجرجاني مؤسسا لنظريته الأسلوبية وهي: النظم بنية ونسيج يعنى بجانب التركيب، والنظم معان ودلالات يعنى بالجانب الدلالي، والنظم جمال ومزايا يعنى بجمالية الرسالة اللغوية وفنيتها، فإن الآليات الإجرائية الأسلوبية التي اعتمدها عبد القاهر الجرجاني في تحليل الخطاب تتكون من آليات ثلاث هي: الآليات التركيبية، والآليات الدلالية، والآليات الجمالية نحاول تبيانها.

1-الآليات التركيبية: كما أسلفنا الذكر أن التركيب عند الجرجاني قوامه عنصرين التعليق والترتيب، فمنشئ الخطاب يستند في إنشائه على جملة من القواعد التعليقية التي تمتاز بها لغته، والتي تفرض عليه فرضا، فهو مجبر على الرضوخ لنظام لغته، هذا النظام الذي يجيز له بعض التصرف في كلامه فيقدم و يؤخر، ويذكر ويحذف، ويصل ويفصل دون مخالفة للقوانين اللغوية العامة، كما له الحرية في اختيار ألفاظه اختيارا، وانتقائها انتقاء حين انتاجه للكلام، فرغم صرامة النظام غير أن منتج الخطاب يستحضر قدراته الخاصة للتحرر من قيود القوانين المفروضة عليه ليظهر تميزه وقدرته على الإبداع متجاوزا التعابير الجاهزة. فالجرجاني نظر إلى التراكيب اللغوية استنادا إلى آليتين تحليليتين هما :الإختيار و الإنزياح .

أ- **آلية الاختيار:** يرى الأسلوبيون « أن اللغة المعيّنة هي عبارة عن قائمة هائلة من الإمكانات المتاحة للتعبير، ومن ثم فإن الأسلوب يمكن تعريفه بأنه اختيار، أو انتقاء يقوم به المنشئ لسمات لغوية معينة بغرض التعبير عن موقف معين »[19]. ذلك أن الرصيد المعجمي يتزاحم بأفعاله وأسمائه وحروفه على لسان المتكلم عندما ينشئ كلامه فإذا كانت الجملة على لسانه وبدأها بفعل –مثلا- انسحبت كل الأفعال من الضغط، وبقيت الأسماء والحروف، وهكذا كلما تقدمت سلسلة الكلام خف الضغط »[20]. والإختيار نوعان: اختيار مقامي واختيار نحوي:

أ-1- الاختيار المقامي: هو اختيار براغماتي، يتخيره المنشئ ليحقق برسالته الغاية المنشودة منها.

أ-2- الاختيار النحوي: هو اختيار يحتكم إلى مقتضيات التعبير الخالصة، ويدخل تحته كثير من الموضوعات البلاغية كالفصل والوصل، والتقديم والتأخير، والذكر والحذف[21]. فكثير من تحليلات التراث البلاغي المتصلة بمضمون التعبير تضاهي المنطقة التي يغطيها علم اللغة الحديث من قضايا تتصل باللغة والفكر والفصاحة وبأشكال القول وتكوينه، مما يشمل جوانبه الثلاثة: الصوتية والمعجمية والنحوية، كما يشمل أيضا صور الفكر وأجناس الأدب ومواقف البلغاء ومقاصدهم، وربما تبدو البلاغة في بعض الأحيان ساذجة في نزعتها التعقيدية الصارمة، لكنها بالرغم من ذلك من أحق العلوم القديمة سميتها بالعلم « فبقدر اتساع ملاحظتها ودقة تحاليلها وتعارفيها وقوة تصنيفها وخضوعها للمنطق بقدر ما تمثل دراسة منظمة لوسائل اللغة التعبيرية لا تعدلها أية دراسة أخرى معاصرة، ولا تكمن أهميتها في أنها تعكس تطورا عن اللغة والأدب فحسب، بل في أنها فلسفة حية وتراثا ثقافيا تتجلى فيه النماذج الفكرية السائدة[22] .

ونجد الجرجاني قد أسقط محور الإختيار على محور التأليف في تحليله للخطابات، بل إنه «يوسع من دائرة (الإختيار) فلا يجعله منوطا بخط المعجم

فحسب، أي الخط الرأسي، بل يمده إلى الخط الأفقي أيضا، حيث تتم في داخله عملية التعليق بين المعجميات بإعطائها وظائف نحوية محددة، وهذه الوظائف تفجر علاقات غير محدودة، وليس لها غاية تقف عندها، ونهاية لا ازدياد بعدها»[23].ويتضح ذلك في المثال الذي ساقه في دلائله أين استخدم فيه هذا المبدأ الأسلوبي.

قال تعالى: « وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ »[24].

في هذه الآية الكريمة يتجلى اسقاط الجرجاني لمحور الإختيار على محور التأليف إذ يقول: « ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض، ثم أمرت، ثم في أن كان النداء بيا دون أيّ نحويا أيتها الأرض، ثم إضافة الماء إلى الكاف دون أن يقال ابلعي الماء؛ ثم أن قيل وغيض الماء فجاء الفعل على صيغة فعل الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر، وقدرة قادر... ثم إضمار السفينة قبل الذكر»[25].

فالجرجاني عمد إلى معيار الإنتقاء والمقارنة بالإمكانات المتاحة للتعبير، بإقامة بدائل متعددة محتملة، حيث قارن وقابل بين (النداء بيا والنداء بأي)، و(ماءك والماء) و(صيغة فُعِلَ وفَعَلَ)، (وإضمار السفينة وذكرها)، فلو تم استبدال الكلمات المفترضة بما هو مذكور لجاز ذلك نحويا، غير أنه يؤدي إلى فساد في الإتساق المعجز لهذا النظم الرباني الذي شنفت ألفاظه أسماع الأنام، وبهرت تراكيبه الخلق على مر الأزمان.

فعن طريق الإختيار وانتقاء الكلمات يتشكل التركيب المرتبة عناصره، والمتعالقة فيما بينها وبذلك يحصل تماثل وتعادل بين محوري الاختيار (الاستبدال)، والتأليف(التركيب)، وقد علّق السكاكي عن فكرة الاختيار كآلية في تحليل أسلوب الآية القرآنية السالفة فقال: « أختير(يا) دون سائر أخواتها لكونها أكثر في الاستعمال، وأنها دالة على بعد المنادى الذي يستدعيه كقام إظهار العظمة والجبروت، وهو تبعيد المنادى المؤذن بالتهاون به، ولم يقل (يا أرضِ) بالكسر

لإمداد التهاون، ولم يقل (يا أيها الأرض لقصد الإختصار، مع الإحتراز عما في أسمائها لكونها أخف وأدور، واختير لفظ (السماء) لمثل ما تقدم في الأرض مع قصد المطابقة، وستعرفها، واختير لفظ (ابلعي) على (ابتلعي) لكونه أخصر لمجيئ خط التجانس بينه وبين (أقلعي)، وقيل (ماءك) بالإفراد دون الجمع لما كان في الجمع من صورة الاستكثار المتأبّى عنها مقام إظهار الكبرياء والجبروت، وهو الوجه في إفراد الأرض والسماء... واختير (غِيضَ) على (غَيّضَ) المشدد....»[26]. فمن خلال تحليل الجرجاني لعدة شواهد من الخطاب القرآني والشعري في دلائله وفق آلية الاختيار تتضح رؤيته العلمية، فمهمة محلل الخطاب الكشف « عما وراء التماسك النحوي في ظاهرة اللغة (كالتوكيد والتعريف والتنكير) من خصوبة إبداعية ترجع إلى استغلال هذه استغلالا يخرج بها من معانيها الأصلية أو الكامنة في عقول الناس مبرزا تفاوت الدلالات الناجم عن طريق الصياغة»[27]. ولا يكتفى بالعلم بقواعد اللغة وطرائق التأليف، بل ينضاف إليها "الذوق" وهو عامل ذاتي محض به تصنع الفوارق بين الأساليب وتتحدد الدلالات والمعاني، وفي هذا يقول الجرجاني: « واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعا من السامع، ولا يجد لها قبولا، حتى يكون من أهل الذوق والمعرفة»[28].

ب-**آلية الانزياح:** شاع مصطلح الانزياح في الدراسات اللغوية الحديثة لماله من أهمية بالغة باعتباره حدثا لغويا يساهم في تشكيل جماليات النصوص الأدبية، إذ يعد الركيزة الأساسية التي قامت عليها الأسلوبية حتى عدها بعضهم "علم الإنزياحات" وهو ما صرح به فاليري بقوله: « إن الأسلوب هو في جوهره انحراف عن قاعدة ما»[29]. ومن المعلوم أن أهم سمة قامت عليها الأسلوبية هي البحث عما يتميز به الكلام الفني عن غيره من أصناف الخطاب، وهذا التمييز قائم على أساس خرق القواعد المألوفة للنظام اللغوي في جميع مستوياته الصرفية والنحوية والمعجمية والدلالية غير أن

الأسلوبيين اختلفوا في تحديد طبيعة النموذج المعيار « الذي يقارن به النص المحلل، فجعله بعضهم "نظام اللغة"، وجعله آخرون النمط العام، أو الإستعمال "العادي" وجعله آخرون النمط التعبيري المتواضع عليه»[30]. والمتحكم في كسر هذا المعيار (القاعدة أو القانون أو السنن أو النمط) هو المؤلف أو كاتب النص، فهو« إجراء أسلوبي مقصود من المؤلف لأنه ينبغي منه تكريس قيمة فنية وجمالية تنبجس في النص لتوليد عناصر ذات أبعاد جمالية تقود إلى التأثير في القارئ[31]. فالغرض إذن من وراء هذا الكسر إنما هو خلق جمالية في النص بغية التأثير في القارئ أو المتلقي ويعد عنصر "المفاجأة" الأكثر بروزا في وظيفة الإنزياح ذلك أن المتلقي الذي وصل إلى مرحلة التشبّع جرّاء ما هو مكرر وتقليدي « لا ينتبه إلى الكلمات والصياغة وما ترمز إليه إلا إذا وضعت على نحو مدهش»[32]. والملاحظ في دلائل الإعجاز أن الجرجاني وظف هذه الآلية في تحليله للنصوص والخطابات، وهذا النموذج الشعري يوضح ذلك:

قال الشاعر: من الطويل: [33]

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطيّ الأباطح

استخدم الجرجاني مصطلح "الغرابة" في تحليل هذا البيت؛ ذلك أن الغرابة تولّد المتعة والجمالية، لأنها خرق للمألوف وتمرد عن النمط المتوقع؛ حيث يحلل البيت قائلا: «... وذلك أنه لم يغرب لأن جعل المطي في سرعة سيرها، وسهولته كالماء يجري في الأبطح، فإن هذا شبه معروف ظاهر، ولكن الدقة واللطف وخصوصية أخادها بأن جعل "سال" فعلا للأباطح، ثم عداه بالباء، ثم بأن أدخل الأعناق في البين، فقال: « بأعناق المطي»، ولم يقل « بالمطي»، ولو قال سالت المطي في الأباطح لم يكن شيئا» [34]. فآلية الانزياح تجلّت في البيت في انزياح النموذج المعيار من (سارت المطي في الأباطح) إلى (سالت المطي في الأباطح)، ثم إلى انزياح آخر(تعدية الفعل سال) ثم انزياح (تعدية الفعل سال إلى أعناق بدل

المطي). والغاية من كل هذه التحويرات التي استعملها الشاعر هو إخبارنا بأي هذه المطي « سار سيرا حثيثا في غاية السرعة، وكانت سرعة في لين وسلاسة، حتى كأنها سيولا وقعت في تلك الأباطح فجرت بها»[35].

فمن هذا المثال وغيره يتضح أن آلية الانزياح من أساسيات التحليل، فالكلام عند عبد القاهر الجرجاني ينقسم إلى قسمين: «قسم خاص باللفظ، يتم فيه انتقاء الألفاظ المناسبة والتي تكون أكثر تأثيرا في السامع، وهو القسم الذي تتجلى فيه جماليات اللغة لأن فيها يكون غرض المتكلم إمتاع السامع بعد إفادته، وقسم خاص بالنحو يتم في توظيف تلك الألفاظ على نحو يحقق له النظم ويجعله مقبولا لدى السامع. وهذا ما ذهبت إليه الدراسات الحديثة في اسقاطها لمحور الاختيار على محور التوزيع، وفي هذا الشأن يقول: « ألا ترى أنك لما نظرت إلى قولهم: (هو كثير رمادِ القِدر) وعرفت منه أنهم أرادوا أنه كثير القِرَى والضيافة لم تعرف ذلك من اللفظ ولكنك عرفته بأن رجعت إلى نفسك فقلت: إنه كلام قد جاءوا عنهم في المدح ولا معنى للمدح بكثرة الرماد ليس إلاّ أنهم أرادوا أن يدلوا بكثرة الرماد على أنه تنصب له القدور الكثيرة ويطبخ تحتها، وإذا كثر إحراق الحطب كثر الرماد لا محالة، وهكذا السبيل في كل ما كان كناية ... وإذا عرفت في الكناية فالاستعارة في هذه القضية، وكذا كل ما في على الجملة مجاز واتّساع وعدول باللفظ على الظاهر»[36].

2- الآليات الدلالية: يتجلى في دلائل الإعجاز أن الجرجاني تحدث عن نوعين من الدلالات: الدلالة الوضعية والدلالة النظمية.

* **الدلالة الوضعية:** تتجلى في دلالة الأصوات ودلالة الألفاظ، وليس لها مزية التغيير والعدول والانحراف لأنها تشكل اللغة بكل منظومتها الصوتية والمعجمية والقواعدية شيء من نتاج المجتمع وليس الأفراد، فهي موجودة أمامهم ومفروضة عليهم، فلا يستطيعون لها تغييرا ولا تبديلا[37] وبالتالي ليس لها أي مزية باعتبارها دلالات إفرادية.

* **الدلالة النظمية:** وهي مكمن المزية والفضل والجمال والتميز، باعتبارها الدلالة المستفادة من نظم الكلمات ورصفها لتعطي دلالة ومعنى، ذلك أن البنية السطحية انعكاس للمعاني النفسية، وهذا النوع من الدلالة تتجسد من دلالتين: دلالة تركيبية، ودلالة سياقية.

2-1- الدلالة التركيبية: هي الدلالة التي « تكمن في توخي معاني النحو وأحكامه، وفروعه ووجوهه والعمل بقوانينه وأصوله»[38]. حيث يربط بين الكلمات وما تؤديه من معان ووظائف «وبذلك يكون الجرجاني قد أعطى للنحو قيمته في اللغة، فهو ليس جملة من القواعد الجافة التي تعتني بضبط أواخر الكلمات، وتعيين المبني منها والمعرب، إنما النحو هو النظم الذي يكشف عن المعاني، ويعطي للألفاظ البعد المطلوب من أجل الإفصاح عن الدلالة وتوليد المواقف المطلوبة المناسبة للتعبير»[39].

2-2- الدلالة السياقية: وتسمى بالدلالة المقامية، فعبد القاهر يرى أن « الألفاظ تستمد دلالاتها من علاقاتها بالكلمات السابقة لها أو اللاحقة بها، وبما يمكن أن تكتسبه في مكانها الذي وضعت فيه من إشعاعات وإضافات جديدة، ومن ثم كانت الكلمة المفردة مجرد إشارة إلى الصورة الباردة للشيء، أما الكلمة المستخدمة في سياق في شحنة من العواطف الإنسانية والصور الذهنية والمشاعر الحية، إلى جانب ما فيها من معنى عقلي مجرد»[40]. وهذا المفهوم يلتقي مع ما دعت إليه النظرة السياقية بزعامة "فيرث" الذي يرى « أن المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية؛ أي وضعها في سياقات مختلفة»[41]. فالآليات الدلالية عند الجرجاني آليتان: آلية التعبير، وآلية التلقي.

1-آلية التعبير: الوظيفة الأساسية التي تقوم بها اللغة هي التعبير، وقد عبّر ابن جني (ت392هـ) عن ذلك حين عرف اللغة فقال: « أما حدّها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[42]. وبما أن الأسلوب « طريقة للتعبير عن الفكر بواسطة اللغة»[43] نشأت أسلوبية التعبير ورائدها "شارل بالي"، والذي عرفها بقوله: «

تدرس الأسلوبية وقائع التعبير اللغوي من ناحية مضامينها الوجدانية، أي أنها تدرس تعبير الوقائع للحساسية المعبرة عنها لغويا كما تدرس فعل الوقائع اللغوية على الحساسية»[44] . وفي الأسلوبية التعبيرية تظهر دلالتان: دلالة ذاتية (طبيعية)، ودلالة سياقية (استدعائية)[45]، ويتجلى دور التعبير الذي يقوم على المعبر (المنتج) والنص، وهذا المثال قائم على آلية التعبير عند الجرجاني.

قال تعالى : « قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنَا يا إبراهيم»[46].

يحللها الجرجاني انطلاقا من وظيفتها التعبيرية مستجليا دلالتها من قصدية المتكلم وأدوات التعبير، جاء ترتيب الوحدات اللغوية للآية كما يلي: همزة الاستفهام+ فاعل+ فعل، فتقدم الفاعل على الفعل له دلالته وفائدته، نحاول توضيحها:

1-الدلالات المستقلة من قصد المتكلم:

يستفاد من الآية الدلالة التقريرية والمراد بها « حمل المخاطب على الإقرار و الاعتراف بأمر قد استقر عنده العلم به، أو هو أمر باستطاعته معرفته حسيا أو فكريا، موجبا أو سالبا»[47]. فالدلالة التقريرية استفيدت من أن السائل وهو "نمرود" يريد من المخاطب وهو نبي الله ابراهيم –عليه السلام– أن يقر ويعترف بأنه الفاعل، ولهذا كان جوابه عليه السلام: « قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ»[48]. والمراد بالتقدير بأنه الفاعل، فلذلك قدّم الفاعل أنت وأخّر الفعل فعلت، فالذي جعل السائل يقدّم الفاعل على الفعل في الاستفهام التقريري هو قصده لدلالة معنية مفادها: أنك أنت الذي قمت بكسر الأصنام، فيجب أن تقرّ بذلك. ولو كان قصد السائل أن يسأل عن الفعل هل كان على الحقيقة، أي أن له ترددا في الفعل لقال: أفعلت؟ بتقديم الفعل، فالمقرّر به يشترط أن يلي الهمزة [49].

أما الدلالات المستفادة من أدوات التعبير: الدلالة التثبيتية وجسدتها:

أ – همزة الاستفهام: والتي تفيد الشك، فإذا وليت الهمزة الأسماء كان الشك في الفاعل، وإذا وليت الفعل كان الشك واقعا فيه[50]. فالهمزة هنا لغرض السؤال عن الفاعل الذي كسر الأصنام، ولا يسألون عن الفعل .

ب –صيغة الفعل الماضي: كان الفعل في الآية ماضيا للدلالة على أنه قد حدث فعلا.

2 –آلية التلقي:

الدلالة التي تعتمد على آلية التلقي هي دلالة تنظر إلى حضور القارئ داخل النص وفي وعي صاحب النص، ومدى تفاعله وتأثره به، وقد اهتم الجرجاني بالملتقي باعتباره محور البحث عن الدلالات حيث قال: « الدلالة على الشيء هي لا محالة إعلامك السامع إياه، وليس بدليل ما أنت لا تعلم به مدلولا عليه... المعقول أن الناس إنما يكلم بعضهم بعضا ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده»[51] وهذا أحد النماذج التي ساقها الجرجاني لغرض إظهار:

دور المخاطب في بناء دلالة الخطاب: دور المخاطب في بناء الدلالات لا يتعلق بسابق علمه بمحتوى النص، وإنما يتعلق بتقدير افتراضي يقوم به المتكلم ويتوقع من خلاله ردّ فعل المخاطب لو أنه أخبره بشيء، ما ومثال ذلك قول ابن الرومي[من الطويل][52]:

هو الرّجل المشروك في جلّ ماله ولكنّه بالمجد والحمد مفرد .

الدلالة لا تدرك إلا بتقدير محاوره بين المتكلم والسامع، يسأل عن ذلك الرجل، فيرد المتكلم: هو الرجل المشروك في جل ماله ... ، كأن يقول له: « فكّر في رجل لا يتميز عفاته وجيرانه ومعارفه عنه في ماله وأخذ ما شاءوا منه، فإذا حصلت صورته في نفسك فاعلم أنه ذلك الرجل»[53]. فالمتلقي له دور ثنائي في المجال الدلالي عند الجرجاني، فهو يساهم في بناء دلالة الخطاب، كما يحدد دلالته، وعليه فإن حضور المتلقي عملية مفترضة داخل دائرة الإبداع منذ البداية، كما أن المبدع يراعي ذلك الحضور، ويتحرك له حركة محسوبة تعبيريا[54].

3 –الآليات الجمالية:

المزية عند الجرجاني قسمان: قسم يعتمد على معايير جمالية واضحة، وقسم يعتمد على معايير جمالية ذاتية، ولكلا القسمين آلية، فالقسم الموضوعي يعتمد على آلية

التصوير الفني، والقسم الذاتي يعتمد على آلية التذوق، وهذه بعض الأمثلة في الدلائل.

أ – آلية التصوير الفني: يقول الجرجاني: « ومعلوم أن سبيل الكلام بسبيل التصوير والصياغة، وأن سبيل المعنى الذي يعبّر عنه سبيل الشيء الذي يقع التصوير والصوغ فيه»[55]، كما عرف الصورة بقوله: « واعلم أن قولنا (الصورة) إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا»[56]. وهذا مثال على آلية التصوير الفني عند الجرجاني، والتي تهدف إلى الكشف الجمالي للنصوص.

قال امرئ القيس: [الطويل] : [57]

فقلت له لمّا تمطّى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل .

جمالية البيت نابعة من حسن تصوير الشاعر لمعانيه وأغراضه، فالشاعر وصف طول الليل فأثبت له ظهرا يتمدّد به، ووجه الشبه هنا هو « أن كل ذي صلب يزيد في طوله عند تمطيه شيء»[58].ثم ثنّى فجعل له أعجازا قد أردف بها الصلب، ووجه الشبه هنا هو أنه « كلما نفد عجز ردفه عجز، فلا تفنى أعجازه ولا تنتهي إلى طرف»[59]. وثلّث فجعل له كلكلا قد ناء به، ووجه الشبه هنا أنه « أراد أن يصف الليل بعد نهاية الطول بالثقل على قلب ساهره، والضغط لمكابده، فالشاعر في هذا البيت لم يكتف بتمثيل الليل بصورة شخص طويل القامة، بل استوفى له جملة أركان الشخص[60]، فالليل (شيء معنوي) جسده في صورة حسية مألوفة لدى المتكلم والسامع معا (الليل شخص).

ب –آلية التذوق: وهو معيار ذاتي فردي خالص، ويعرف الذوق « بأنه قوة يقدّر بها الأثر الفني، أو هو ذلك الاستعداد الفطري المكتسب الذي نقدر به على تقدير الجمال والاستمتاع به ومحاكاته ما نستطيع في أعمالنا وأقوالنا وأفكارنا »[61]. وقد اعتمد الجرجاني في تحليله للخطابات على آلية التذوق حيث يقول: « واعلم أنه لا يصادف القول في هذا الباب موقعا من السامع، ولا يجد له قبولا، حتى يكون من

أهل الذوق والمعرفة، وحتى يختلف الحال عليه عند تأمل الكلام، فيجد الأريحيّة تارة ، ويعرى منها أخرى، وحتى إذا أعجبته عجب، وإذا نبّهته لموضع المزية انتبه[62] .ومن الأمثلة التي ساقها محللا وفق آلية الذوق في الاستحسان أو الاستقباح.

قال المتنبي [من الكامل] : [63]

عجبا له حفظ العنان بأنمل ما حفظها الأشياء من عاداتها .

هذا البيت ذكره عبد القاهر ليؤكد أن الذوق السليم هو الفيصل بين ما هو جميل وما هو قبيح فقال فيه: « مضى الدهر الطويل ونحن نقرؤه فلا ننكر منه شيئا، و لا يقع لنا أن فيه خطأ، ثم بان بآخره أنه خطأ »[64]. ويعلل الجرجاني على عدم جماليته، فيتوقف عند سوء الاختيارات في قوله: (ما حفظها الأشياء من عاداتها) إضافته الحفظ إلى ضميرها يقتضي أن يكون قد أثبت لها حفظا، وكان ينبغي له أن يقول: (ما حفظ الأشياء من عاداتها)، فيضيف المصدر إلى المفعول، فلا يذكر الفاعل، ذلك لأن المعنى على أنه ينفي الحفظ على أنامله جملة [65]. هذا التحليل والتعليق نابع أساسا من ذوق الجرجاني، ليؤكد من خلاله أن التذوق نسبي، ومتأثر بعوامل عدة تجعلنا نستحسن العيوب ونغيب المحاسن أحيانا.

خاتمة

بعد هذه الدراسة في كتاب "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني ونظريته الأسلوبية توصلت إلى مجموعة من النتائج أهمها:

- النظم في تفكير الجرجاني شديد الارتباط بالأسلوب، فهما وجهان لعملة واحدة.

- التحليل الأسلوبي يكشف المدلولات الجمالية والفنية في الخطاب الأدبي، وذلك عن طريق النفاذ في مضمونه، وتحليل عناصره، وبهذا يمكن أن يمهد الطريق للناقد ويمده بمعايير موضوعية يستطيع على أساسها ممارسة العملية النقدية، وترشيد أحكامه باعتبار الأسلوب جملة من التقنيات المعتمدة من قبل

صانع الخطاب ومكوناتها هي الوحدات اللغوية المعبأة بمعاني تفرض نفسها على المتلقي بأشكال مختلفة.

- الأسلوبية عند الجرجاني مجموعة من الإجراءات الأدائية تمارس بها مجموعة من العمليات التحليلية التي ترمي إلى دراسة البنى اللسانية في الخطاب كاشفة عن البنى المتميزة «البُنَى الأسلوبية» إذ تُضفي هذه الأخيرة على النص القيم الفنية والجمالية والسمات الفريدة التي تكون بمثابة الباعث على التحليل الأسلوبي بعيدا عن الانطباعات الذاتية.

- انطلق الجرجاني في تحديده الأسلوبي على ثلاثة مبادئ نظرية:

1- النظم بنية ونسيج.

2- النظم دلالات ومعان.

3- النظم جمال ومزايا.

- الأليات الإجرائية للتحليل الأسلوبي عند عبد القاهر الجرجاني في دلائله ثلاثة أنواع:

1- الأليات التركيبية

أ- آلية الاختيار

ب-آلية الانزياح

2- الأليات الدلالية

أ- آلية التعبير

ب- آلية التلقي

3- الأليات الجمالية

أ- آلية التصور

ب-الفني آلية التذوق

الإحالات والهوامش:

1 – عبد القاهر الجرجاني: مدخل دلائل الإعجاز، تح محمود شاكر، مطبعة المدني، مصر، ط3، 1992م، ص 04.

2 –المصدر نفسه، ص 04.

3 – عبد العزيز حمودة: المرايا المحدبة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والأداب، الكويت، د.ط، 1998م ، ص 140.

4 – ينظر محمد مندور: في الميزان الجديد، دار نهضة مصر، د . ط ، د . ت ، ص ص 176– 177 .

5 – ينظر تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، د . ط ، 1994م ، ص 188.

6 – أبو عثمان الجاحظ : الحيوان، تح، عبد السلام هارون، شركة مكتبة مصطفى الباني الحلبي وأولاده، مصر، 1965م ، 132/3 .

7 – عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص 04 .

8 – تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص 188.

9 –المرجع نفسه، ص 189.

10 – عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص 55 .

11 – تمام حسان : اللغة العربية معناها ومبناها ، ص 207 .

12 – محمد حماسة عبد اللطيف : النحو والدلالة ، دار النشر الشروق، مصر، ط1 ، 2000 ، ص 41 .

13 – حمادي بن جاء بالله : المعنى وتشكيله ، تنسيق المنصف عاشور، منشورات كلية الأداب، منوبة ، تونس2003 ، ص 76 .

14 – عزمي إسلام : مفهوم المعنى ، دوريات كلية الأداب، جامعة الكويت، الحولية السادسة، الرسالة31 ، 1985 م، ص 25 .

15 – طارق النعمان : اللفظ والمعنى ، مكتبة الأنجلو المصرية ، مصر د . ط ، 2003م ، ص 253 .

16 – عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص 36 .

17 – عزالدين إسماعيل: الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الفكر العربي ، مصر ، ط3 ، 1974م ، ص 405 .

18 – عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص ص 97–98 .

19 – سعد مصلوح : الأسلوب، عالم الكتب، القاهرة ، مصر ، ط3 ، 1992، ص 38 .

20 – محمد عبد المطلب : البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ، ناشرون، بيروت، ط1، 1994م ، ص ص 38–39 .

21 – ينظر سعد مصلوح : الأسلوب ، ص ص 38–39 .

22 – صلاح فضل : علم الأسلوب ، دار الشروق، القاهرة ، ط1 ، 1998، ص ص 177.176.

23 – محمد عبد المطلب: قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، الشركة المصرية، العالمية للنشر، ط1 ، القاهرة، مصر ، 1995م ، ص ص 100–101 .

24 – سورة هود، الآية 44 .

25 – عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 46 .

26 – أبو يعقوب السكاكي : مفتاح العلوم، تح نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان، ط2 ، 1987 م، ص 419 .

27 – ساسي عامر: وظيفة الناقد الأدبي بين القديم والحديث، دار المعارف ، د ط ، د ت ، ص 31 .

28 – عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص 291 .

29 – صلاح فضل: علم الأسلوب، مبادئه وإجراءاته ، دار الشروق ، القاهرة، ط1 ، 1998 م، ص 208 .

30 – انظر: عبد السلام المسدي: الأسلوبية والأسلوب، الدار العربية للكتاب، تونس، ط3 ، د . ت ، ص ص 99–103.

31 –موسى ربابعة : الأسلوبية مفاهيمها وتجلياتها، دار الكندي ، الأردن، ط1 ، 2003م ، ص 37 .

32 – فخرية غريب قادر: تجليات الدلالة الإيحائية في الخطاب القرآني في ضوء اللسانيات المعاصرة، سورة التوبة أنموذجا، عالم الكتب الحديث ، اربد ، الأردن ، ط1 ، 2011م ، ص 269 .

33 – ينظر حبيب بن أوس : الحماسة الصغرى ، تح عبد العزيز الراجكوتي، دار المعارف ، القاهرة ، مصر، ط3 ، د . ت ، 1/ 187 .

34 – عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص ص 75–76 .

35 – المصدر نفسه، ص 74 .

36 – عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ترجمة محمد رشيد رضا ، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان، ص 429 .

37 – ينظر : عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية ، الدار العربية للكتاب، تونس، ط2 ، 1986م ، ص 114 .

38 – محمد حماسة عبد اللطيف: النحو والدلالة ، ص 55 .

39 – منقور عبد الجليل : علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، د ط ، 2001 ،ص 151 .

40 – محمد زكي العشماوي : قضايا النقد الأدبي بين القديم والحديث، دار النهضة العربية، بيروت ، لبنان، د ط ، 1979م، ص 305 .

41 – أحمد مختار عمر :علم الدلالة ، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط5 ، 1997م ، ص 68.

42 – ابن جني(أبو الفتح عثمان) : الخصائص ، تح الشريبني شريدة ، دار الحديث، القاهرة ، مصر ،ط1 ، 2007، ص 76 .

43 – بيير جيرو: الأسلوبية ، ترجمة منذر العياشي ، مركز الإنماء الحضاري ، حلب ، سوريا، ط2 1994م ،ص 10 .

44 – المرجع نفسه، ص 54 .

45 –انظر ادريس قصوري : أسلوبية الرواية ،عالم الكتب الحديث ، إربد ،الأردن،ط1، 2008، ص36.

46–سورة الأنبياء ،الآية 62

47–عبد الرحمان حبنكة الميداني: البلاغة العربية ،دار القلم، دمشق، سوريا، ط1، 1996، ص 275.

48– سورة الأنبياء ،الآية 63.

49– ينظر القزويني: الإيضاح في علوم البلاغة، تح محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، لبنان ، ط3، د.ت، 81/3.

50– انظر المؤيد بالله يحي بن حمزة الحسيني: الطراز لأسرار البلاغة و علوم حقائق الإعجاز، تح: عبد الحميد الهشماوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1423ه، 109/2.

51– عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ،ص530.

52– ينظر ابن الرومي: ديوان ابن الرومي، شرح أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ، ط3 ، 2002، 376/1 .

53 – عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص 181 .

54 – ينظر محمد عبد المطلب : قضايا الحداثة عند عبد القاهر الجرجاني، ص 242.

55 – عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز ، ص 254 .

56 – المصدر نفسه ، ص 508 .

57 – ينظر امرئ القيس: ديوان امرئ القيس، تح عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة ، بيروت ، ط2 ، 2004، ص 48 .

58 – ابن أبي الأصبع العدواني : تحرير التعبير في صناعة الشعر والنشر وبيان إعجاز القرآن، تح حفني محمد شرف، الكويت، د ط ، د ت ، ص 100 .

59 – المرجع نفسه ، والصفحة نفسها.

60 – المرجع نفسه ، والصفحة نفسها .

61 – أحمد الشايب : أصول النقد الأدبي ، مكتبة النهضة المصرية، مصر، ط1 ،1994م، ص 120 .

62 – عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص 291 .

63 – ينظر المتنبي : ديوان المتنبي ، جمع عبد الوهاب عزام، د . ت ، ص 172 .

64 – عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ، ص 551 .

65 – المصدر نفسه ، ص ص 551-552 .

.